ابن حمديس الصقلي

الشاعر المصدّر

الشاعر ابن حمديس من اللآلئ العربية الثمينة التي كاد أن يستأثر بها بحرُ النسيان ، لولا يريقها العجيب الذي هدى بعض المنصفين إلى مكمنها . ولكن ما زالت شهرة ابن حمديس دون شهرة غيره من كبار شعراء العربية ، في حين أن شاعريته لا تقل خصوبة عن شاعرية البحتري وابن الرومي لا سيما في حلبة الوصف والتصوير والوجدانيات .. والذي يؤسف له أن المصادر عن حياة ابن حمديس ضئيلة . وحتى ما كتبه عنه إبن خلكان [1] لا يرسم صورة كاملة لشخصية وعبقرية هذا الشاعر العربي النابغ . وقد نسبه ابن خلكان بقوله : « هو أبو محمد عبد الجبار بن أبي بكر بن محمد بن حمديس الأزدي الصقلي الشاعر المشهور » ولم يذكر بقية نسبه إلى الأزد . ولا بدّ لنا من الإستعانة بديوانه لمعرفة الجوانب التي أغفلها المؤرخون ، والديوان هذا خير معوان لمن يريد الوقوف على تأريخ حياة ناظمه .

ولد ابن حمديس في مدينة « سرقوسة » من جزيرة صقلية [2] في أواخر حكم المسلمين بها حوالى سنة ٤٤٧ هـ وسُمي عبد الجبار وكني أبا محمد . أما ابن حمديس فإسم عرف به ، وحمديس أحد أجداده . وقد شهد ابن حمديس

---

(١) وفيات الأعيان ط بولاق ص ٣٨٠

(٢) فتحها العرب بقيادة أسد بن الفرات سنة ٢١٩ هـ وظلت في حكمهم إلى أن غزاها النورمنديون سنة ٤٦٤ هـ الذين استغلوا تنازع العرب فيما بينهم .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

غروب شمس العروبة عن صقلية لأسباب منها النزاع والتخاصم فيما بين العرب أنفسهم ، فاهتاجت نفسه وتأججت حسراته على ضياع شيء من عز العروبة وسلطانها ، فهاجر من أرض صار فيها غريباً وودّع مسقط رأسه بقصيدة رائعة ندّد فيها بالغزاة المعتدين وعاتب قومه المتخاصمين (ديوان ابن حمديس — طبعة روما ١٨٩٧ م ص ٣٨) :

ولو أن أرضي حرّة لأتيتها ... بعزمٍ يعدّ السير ضربة لازبِ
ولكن أرضي كيف لي بفكاكها ... من الأسر في أيدي العلوج الغواصبِ
أحين تفانى أهلها طوع فتنةٍ ... يضرّم فيها ناره كل حاطب
ولم يرحم الأرحام منهم أقارب ... تروّي سيوفاً من نجيع أقاربِ

وهكذا هاجر ابن حمديس قاصداً الأندلس عام ٤٧١ هـ وحطّ رحاله في إشبيلية في زمن ملكها المعتمد بن عبّاد . ولما وصل الشاعر المهاجر اشبيلية بقي فترة من الزمن منسياً لا يشير إليه أحد بالبنان . ولكن الحظ الذي عبس له في صقلية سرعان ما تبسّم له في إشبيلية عندما استرعى نظر ابن عبّاد حيث أرسل إليه من يدعوه وأجلسه وقال له : افتح الطاق التي تليك . ففتحها وإذا بكور زجاج على بعد والنار تلوح من بابيه ، وواقده يفتحها تارة ويطبقها أخرى ، حتى دام سدّ أحدهما وفتح الآخر . وحين تأملها ابن حمديس قال له ابن عبّاد : أجز :

ابن عباد : إنظرهما في الظلام قد نجما
ابن حمديس : كما رنا في الدجنة الأسدُ
ابن عبّاد : يفتح عينيه ثم يطبقها . .
ابن حمديس : فعل امرئ في جفونه رمدُ
ابن عبّاد : فابتزه الدهر نور واحدة
ابن حمديس : وهل نجا من صروفه أحدٌ

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

فاستحسن ابن عباد ذلك وأمر للشاعر النابغ بجائزة سنية وألزمه خدمته . فطفق الشاعر يمدح ابن عباد وآل عباد مديحاً يتناسب مع جزيل العطاء ويتسجم مع الوفاء والصداقة المتبادلة بينه وبين المعتمد . وظل ابن حمديس وفياً لابن عباد في أحرج الظروف التي مرّ بها ابن عباد ، حيث اعتقله ابن تاشفين [1] في قلعة (أغمات) بمراكش . فكان ابن حمديس يسأل عن صديقه السجين ويبعث إليه بنفثاته الشعرية المشحونة بالمحبة والوفاء والحسرات وجميل التأسية من ذلك قوله (الديوان ص ٢٣٥ فقرة ١٥٢) :

لئن كنت مقصوراً بدارٍ عمرتها ... فقد يقصر الضرغام وهو هصورُ
أعزّ الأسارى أن يقال محمد ... غريب بأرض المغربين أسير
لقد صنتَ دين الله خير صيانة ... كأنك قلب فيه وهو ضميرُ

ولما توفي المعتمد بن عباد سافر شاعرنا ابن حمديس إلى أفريقيا وألقى عصاه بالمهدّية مقرّ ملك بني باديس ، واتصل بالأمير تميم بن المعزّ وابنه يحيى وحفيده علي ، فأحسنوا وفادته ، ثم قصد جزيرة ميورقة لسبب لم يذكر في كتب التراجم . ويقول ابن خلكان أنه « توفي في سنة سبع وعشرين وخمسمائة بجزيرة ميورقة وقيل ببجاية . وأبياته الميميّة التي في الشيب والعصا تدلّ على أنه بلغ الثمانين رحمه الله تعالى » .

* * *

ظلّ ديوان ابن حمديس في زوايا النسيان إلى أن انتبه له المستشرق الايطالي « جلستينو سليباريللي » فطبعه ووقف على تصحيحه وقارنه بما لديه من النسخ

(١) لما استنجد ابن عبّاد بابن تاشفين ، سلطان المرابطين بمراكش لصد ألفونس ملك الاسبان أنجده ابن تاشفين ودحر ملك الاسبان ، ثم طمع المنجد بمراكش وانتظمها في سلطانه واعتقل ابن عبّاد في قلعة أغمات بمراكش .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الخطيّة وذلك عام ١٨٩٧ م . وهذه الطبعة أنيقة للغاية في حروفها وفي إخراجها إلاّ أنها لا تخلو من الأغلاط ، ولكنها على أي حال الطبعة الوحيدة المعوّل عليها بالرغم من أن دار صادر في بيروت قد عهدت إلى الدكتور إحسان عباس بإعادة النظر في طبعة روما ، فطبعت الديوان نقلاً عن نسخة روما من غير تحقيق أو شرح يروي الغليل .

ان حياة ابن حمديس لم تبقَ لغزاً يعسر حله ، بالرغم من قلة التراجم عنه ، لأن حياته منبثة في شعره ، وقد رسم شعر ابن حمديس أدقّ وأصدق صورة لناظمه .

لقد نظم ابن حمديس في مختلف الأغراض الشعريّة التي يطرق أبوابها الشعراء عادة فأبدع وأجاد وجاءنا بما يهزّ ويمتع . ولا يخفى على المعنيين بالشعر والشعراء أن لكل شاعر غرضاً يبدع فيه أكثر من سواه فيتميّز به ويشتهر ويعرف . وقد اشتهر ابن حمديس بالوصف والوجدانيات ، فقد وصف الطبيعة الشاملة من سمائها إلى أرضها إلى مائها وصوّر ما يدبّ على الأرض من إبل وجياد وكوامر الآساد ، كما صوّر الخمرة ومجالس الشراب الأنيقة المترفة . ووصفه يرقى من الجزئيات إلى الكليّات ، فترى فيه شمولاً واتساعاً ، فكأنك ، وأنتَ تطالع شعره ، تحس أن الطبيعة تتحدّث عن نفسها .

وقد ترفّع ابن حمديس عن الهجو وعصم قريضه عنه بالرغم من توفر دواعي الهجاء في بيئته ، وما كان قصير الباع في الهجاء لو شاء أن يطرق بابه فهو القائل :

وما أنا ممن يرتضي الهجو خطةً ... على أن بعض الناس أصبح يهجوني
أسالم من ألفيتُ قدري كقدره ... وأعظم من فوقي وأحقرُ من دوني
ولو شئتُ يوماً لانتصرت بمقولٍ ... يحيل على الأعراض حدّ السكاكين!

* * *

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

قلت إن ابن حمديس كان مجليًا في الوصف . وأقول إن من مبتكراته في الوصف وصفه لتمثيل أسود في دار بناها المنصور بن أعلى الناس ببجاية . قال ابن حمديس (الديوان ص ٤٨٢ فقرة ٣٤) :

أسدٌ كانّ سكونها متحرّك ... في النفسِ لو وجدت هناك مثيرا
وتذكرت فتكاتها فكأنما ... أقعت على أدبارها لتثورا
وتخالها والشمس تجلو لونها ... ناراً وألسنها اللواحس نورا

ان الذي يصف تمثال الأسد بمثل هذه الروعة ، لا يستغرب منه وصفه للأسد الحي وصفًا أدق وأروع ، فهو القائل في أسد حي :

وليثٍ مقيمٍ في غياضٍ منيعةٍ ... أمير على الوحش المقيمة في القفرِ
له جبهة مثل المجن ومعطس ... كأنّ على أرجائه صبغة الحبرِ
يصلصل رعد من عظيم زئيره ... ويلمع برق من حماليقه الحمرِ
له ذنب مستنبط منه سوطه ... ترى الأرض منه وهي مضروبة الظهرِ
يصول بكفٍ عرض شبرين عرضها ... خناجرها أمضى من القضب البترِ
يجرّد منها كلّ ظفرٍ كأنّه ... هلال بدا للعين في أولِ الشهرِ

وقال ابن حمديس يصف الحصان ، وهو وصف قد ينطبق على طيارة زماننا :

ومديد الخطا كأنّك منه ... تضع اللبد فوق تيّار سيلِ
قيد وحش بلا ذخائر وهن ... وقرى معقل وحارس ليلِ
أسبق الريح فوقه فإذا ما ... فتّها أمسكت بفضلةِ ذيلِ !

وقال ابن حمديس يصف باقة ورد ، وقد وفق في المقارنة بين الزهور الجميلة التي لا رائحة لها وبين الذين تروقنا أثوابهم ولكننا لا نتنسم عطر الأدب من أرواحهم (ص ٢٣) :

وباقةٍ مستحسن نورها ... وقد خلت في الشمّ من كل طيب

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

كمعشر راقتك أثوابهم وليس في جملتهم من أديب

ولم أعثر في الشعر العربي على وصف للشمعة كوصف ابن حمديس لها ، فقد وصفها وصفاً دقيقاً لا إخال الشمعة ، لو نطقت ، تصف ذاتها بأروع وأصدق منه (ص ٢٣) :

قناة من الشمع مركوزة لها حربة طيبت من لهب
تُحرَّق بالنار أحشاؤها فتدمع مقلتُها باللهب
تمشَّى لنا نورها في الدجى كما يتمشى الرضى في الغضب
عجبتُ لآكلةٍ جسمها بروحٍ تشاركها في العطب

وما أجمل وصفه للبَرَد الهاطل في يوم من أيام الشتاء الباردة ، إذ يشبهه بدرر النحور وباللآلئ ، أو ما أروع وصفه للبرق إذ يشبهه بعين الأسد المتوقدة المتألقة في الليل :

نثر الجوّ على الأرض بَرَدْ أي درّ لنحورٍ لو جمدْ
لؤلؤ أصدافه السحب التي أنجز البارق منها ما وعدْ
منحته عاريًا من نكدٍ واكتساب الدر بالغوص نكدْ
ذوبته من سماء أدمع فوق أرض تتلقاه نَجَدْ
فجرت منه سيول حولنا كشمابين عجال تطّرد

إلى أن يقول :

وكأن البرق فيها حاذف بضرامٍ كلما شبّ خمدْ
تارة يبدو ويخفى تارة كلام كلما صلّ غُمِدْ
يذعر الأبصار محمرًا كما قلّب الحملاق في الليل الأسدْ

ويجمل بي في هذه العجالة أن ألمّ بعض الإلمام بشعر ابن حمديس الغزلي ، فهو من فرسان هذا الميدان . والذي يلاحظ على غزله أنه من الضرب الوجداني

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الذي يتدفق من قلب جريح تارة ومعذب تارة أخرى فيبتعد عن التكلف وإن كان ينجو منه في بعض الأحيان . فمن غزله الوجداني الصادق (الديوان ص ١٥١ فقرة ١٠٧) :

كحل الهوى والسحر منـــــك جفون رئم أحور
فجوارحي مجروحـة منها بسيف مضمر
كم ذا يغير لي هوا كِ بخلقك المتغير
نقضت حلاوة موردي منه مرارة مصدري
ومنعتني من لثم نيـــــك جنى الرضاب المسكر
أجنّة الفردوس أحـــــرم شرب ماء الكوثر

ومن غزله الوجداني قوله متغزلاً في فاتحة ديوانه (فقرة ١) :

الى متى منكم هجري وإقصائي ويلي وجدتُ أحبائي كأعدائي
أعيا عليّ وعذري لا خفاء به رياضة الصعب من أخلاق عذراء
يا هذه هذه عيني التي نظرت تُبلّ بالدمع إصباحي وإمسائي
من مقلتيك كساني ناظري سقماً فما لجسمي فيه بين أفياء
وكل جدب له الأنواء ماحيةٌ وجدب جسمي لا تمحوه أنوائي
إني لنجم وفاءٍ يستضاء به وأنتِ بالغدر تختارين إطفائي
دع حيلة البرء في تبريح ذي سقمٍ إن المشار إليه ريّق الماء
مضنى يردّ سلام العائدات له مثل الغريق إذا صلى بإيماء

وبعد فالحديث يتفرّع وينشعب ويطول عن هذا الشاعر العربي العبقري الذي يكاد أن يعدّ في عداد الشعراء المنسيين . ولا أشك بأن هذا الشاعر المبدع سيتبوأ مكانته المرموقة في الدراسات التي يكتبها أدباء عصرنا عن أعلام تراثنا الغابر . فالنسيان لا يمحو العبقرية وإن حجبها إلى حين .

بغداد — حارث طه الراوي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net